النقد عند سكينة

بقلم صالح جواد الطعمة

كان النقد في العصر الجاهلي يوجه عنايته الى نقد الالفاظ من حيث انها تؤدي المعنى البليغ . او المعنى المطلوب في مكان دون آخر موافقة لمقتضى الحال وجرياً على ما يتطلبه المقام في اختلاف الاحوال .. ولا اقصد من هذا ، انه كان مقصوراً على تخير الالفاظ وحدها ، وان لم يكن هناك غير هذا النقد ، لا ، فاننا نرام يستعذبون التشبيهات اذا ما وقعت في الموقع اللائق، ويستمرئون دقة التصوير لما يقصد اليه الشاعر او الخطيب تصويراً يبرزه للعيان متجسداً ، كانه ذو شخصية ظاهرة تميزه عن باقي الصور .

لست اقصد هذا ، ولاريد انهم لم يكن عندهم غير هذا اللون من النقد فحسب ، بل قصدي ان هذا النوع هو الغالب والمستأثر بعنايتهم والشائع بينهم والمتداول عندهم ، والذي يجعلنا نزعم هذا الزعم هو اننا لم نجد عندهم ما هو اكثر شيوعا من ذلك الصنف ، فقد رأينا (النابغة)[1] ينتقد حسان بن ثابت الانصاري القائل :

لنا الجفنات الغرّ يلمعن في الضحى واسيافنا يقطرن من نجدة دما

(النابغة) ينتقده ؛ لان بعض الالفاظ من هذا البيت ضعيفة ، وكان الاحسن ان يجعل مكانها ما هو خير منها واولى بهذا المقام ، فمثلا : الجفنات جمع قلة والأبلغ في مقام الفخر ان يؤتى بجمع الكثرة ، ووصف الجفنات بالغرّ اقل جمالا من وصفها بـ البيض كما ان لمعانها في الدجى ابدع منه في الضحى ولو قال : « واسيافنا يجرين من نجدة دما » لكان اكثر دلالة على شدة بأس المفتخر من [واسيافنا يقطرن من نجدة دما] هذا هو النقد في ذلك العصر كما ترون لايتعدى غالباً ناحية اللفظ وتجويره ، ولم يجر في اول عهد الاسلام تنكب اوازورار عن هذا الاسلوب .

على ان النظرة في ذلك العصر ـ عصر الاسلام كانت اقرب الى التيمن والتفاؤل منها الى شيء آخر ؛ فقد كان رسول الله صلى عليه وآله ينتقد بعض الاسماء لاشتقاقها من اشياء تبعث على التشاؤم ، فكره ان يكون اسم البعض (٢) بني غيان وسماه بني رشدان ثم اخذت نظرة النقد تتطور شيئاً فشيئا ، وتسير نحو التكامل ، فظهر اول الامر بعض القواعد من استثقال الغريب من الالفاظ ، وعدم الرغبة فيه ، وكانت اذواقهم في هذا العهد ومابعده ، تتفادى ما استطاعت على تفاديه واخذت بعدئذ تظهر القواعد قليلا قليلا باجتهاد بعض الادباء والعلماء الذين فصلوا القواعد تفصيلا يدعو الى الاكبار والاعجاب فصارت قواعد الالفاظ منفصلة عن قواعد المعاني واستقلت الاولى عن الثانية ، وحازت على فن ذي اركان واصول ، واستقلت الاخرى كذلك وحصلت على فن سموه علم البيان كما سموا الاول علم المعاني وصار مدار النقد مبنياً على هذه القواعد بحيث ان الذي يتنكب عنها ، يعد ضالا خارجا عن حدود القول البليغ .

هذا هو النقد عند عامة الناقدين من الادباء في تلك العصور .

***

ولكن اذا توجهنا الى سكينة عليها السلام وذوقها في النقد وجدناه يختلف .. ما عن النقد السابق ، فهو عندها يأخذ اتجاهاً غير ما كان عند غيرها ، وقد توجهت به اتجاها روحيا طريفا ، فيه عذوبة ورواء ، قلوا ان الشعراء كانوا يجتمعون على بابها لتحكم لهم ، وكانت هي تستعذب الغزل الذي فيه ميوعة وخضوع ، وتهالك على حب المرأة ، فالشعر الذي فيه رقة الهوى ، والم الفراق هو الشعر الذي يجوز ويفوز استحسانها واعجابها ، واما الشعر الذي فيه خشونة ، او قل فيه شبه اعراض عن الحبيب ، فذاك شعر جامد الروح غير حقيق بأن ينشد وان يسمع فهي تعيب هذا البيت الذي قاله جرير [٣]

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

---

(١) الموشح المرزباني ص ٦٠

[٢] محاضرات الاستاذ علام سلامة في الادب الاسلامي. بحث في نقد الأدب العربي ص ٦

[٣] اعيان الشيعة ج ١٣ ص٤٣